الوحدة: فلسفة الأنوار (الفصل الرابع) - 3 -

I – 2 – التنوير والدين

I – 2 – 1 – موقع الدين في التنوير

لقد أنهى كانط مقالته بالإشارة إلى التركيز أكثر على الأمور الدينية في عصر الأنوار، مادام القصور في هذه الأمور حسبه هي الأكثر ضررا ووبالا على الإنسان والمجتمع. ولم يكن هذا رأي كانط وحده بل رأي الكثير من الفلاسفة والمفكرين، سواء من القرن الثامن عشر أو من المرحلة المعاصرة. **فما السبب وراء أخذ الدين هذه المكانة المتميزة في التنوير؟ وبعبارة أخرى، لماذا احتل الجدل حول حقيقة وقيمة الإيمان الديني عموما، والإيمان المسيحي خصوصا، مكانة خاصة في التنوير؟**

لا يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة دون الرجوع إلى الوراء قليلا، وبالخصوص إلى مرحلة الإصلاح الديني التي سبق وأشرنا إليها. فبعد تدشين لوتر لحركته الإصلاحية ودعوته إلى التسامح مع المخالفين للكنيسة الكاثوليكية، ومقارعتهم بالأفكار بدل الحرق، بدأت التصدعات تعتري المذهب المسيحي الرسمي، تلتها مرحلة من الحروب والصراعات بين الدول البروتستانتية والدول الكاثوليكية، و بين الطوائف المختلفة داخل نفس الدولة.

وما كان يزيد من تعقيد الأمور، هو تغيير رأس النظام السياسي لمذهبه من حين لآخر لسبب ما، الأمر الذي يستدعي حملة إعدامات و طرد رجالات الكنيسة والدولة المخالفين. وهذا ما وقع في أنجلترا بالضبط منذ دخول المذهب البروتستانتي إليها، حتى الثورة المجيدة لسنة 1688. ففي كل مرة كان يتم الانتقال رسميا فيها من مذهب إلى آخر، إلا وكانت تليها حملة قتل واعتقالات وتغييرات في الهيكل العام للدولة، لأن الديني والسياسي كانا بمثابة وجهان لعملة واحدة.

إن هذا الصراع الدامي التي عرفته أوروبا منذ بداية العصر الحديث، سواء بين الدول المختلفة دينيا – الدول الكاثوليكية والدول البروتستانتية – أو بين الطوائف داخل المذهب نفسه، قد انتقل إلى المجال الفكري في عصر التنوير كصراع فكري من خلال المناقشات الفلسفية.

لم تكن القلاقل السياسية والدينية المترتبة عن الصراع الديني وحدها من جعل من الدين يحتل الصدارة في التنوير، بل أيضا هناك عاملا آخر لا يقل أهمية وهو التطور العلمي. لقد جعل تطور العلوم الطبيعية من القبول الحرفي لكلمات الإنجيل أمرا صعبا، فبرزت مقاربات وتأويلات مختلفة للكتاب المقدس. وفي هذا السياق صدر لاسبينوزا كتاب "رسالة في اللاهوت والسياسية"، قدم فيه طريقة في تفسير للكتاب المقدس تقوم على روح النص وليس على القراءة الحرفية لكلماته.

وبصدور كتاب نيوتن "المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية"، الذي قدم فيه نظرة علمية للكون، تأزمت النظرة الدينية أكثر. فإذا كانت الطبيعة تحكمها قوانين طبيعية عامة وقارة كما قال نيوتن، فكيف يمكن تفسير المعجزات والخوارق التي تعتبر أساس كل دين؟ إن محاولة الإجابة عن هذا التساؤل من قبل فلاسفة الأنوار، أدى إلى جدال ديني نتج عنه أشكال مختلفة من التدين في القرن الثامن عشر.

I – 2 – 2 – أشكال التدين في عصر التنوير

انطلق النقاش الديني في الأصل كمحاولة لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية، وقد كان هدفه في البداية إضافة إلى التخلص من فساد الكنيسة وتجاوزاتها، التحرر من الخرافة والقوى السحرية، وإفساح المجال أكثر للحرية والعقل. صحيح أن هذا النقاش تحول في أغلب الدول الأوروبية إلى صراع مسلح، لكنه وبفضل عوامل عدة أخرى منها العلم، أفرز أشكالا من التدين لم تكن معهودة من قبل، فبالإضافة إلى الديانة المسيحية والطوائف المنبثقة عنها، نجد الربوبية (Deism)، والدين الطبيعي (Natural Religion)، والإلحاد (Atheism).

الربوبية = Deism: إن المرجع الأساسي في هذا الشكل من التدين هو العقل، لذلك يعتبر الشكل الأكثر ارتباطا بالتنوير. اعتمادا على نور العقل وحده، يمكن للإنسان أن يتوصل إلى حقيقة أن هذا الكون المنظم تنظيما دقيقا له خالق أسمى. ووفق العقل أيضا، يمكن الاستنتاج بأن هذا الخالق رغم أنه هو المخطط الأول للكون والواضع لقوانينه، إلا أنه لا يتدخل في مخلوقاته، ولا يغير القوانين الذي وضعها في البداية. بعبارة أخرى، بدل رؤية الله كقوة تتحرك خارج العالم المخلوق وتتدخل فيه باستمرار، أصبح تدخل الله مقصورا على العمل من خلال الأسباب الطبيعية ومتجاوبا مع القوانين الطبيعية المطروحة للدراسة الإنسانية. ومن هنا يرفض الربوبيون المعجزات، والاعتماد على الوحي كأساس للاعتقاد الديني.

يتماشى هذا الشكل من التدين مع الاكتشافات الجديدة في العلم الطبيعي، والتي قدمت الكون كآلة منظمة وذاتية العمل. ورغم أن نيوتن ليس ربوبيا، إلا أنه قدم الأساس لهذا الشكل من التدين من خلال اكتشافاته العلمية وآرائه التي تقول بإمكانية الاستدلال انطلاقا من نظام وجمالية العالم على وجود كائن ذكي باعتباره سبب هذا النظام وهذا الجمال. وقد لعبت الربوبية دورا كبيرا في تأسيس الجمهورية الأمريكية، فالعديد من الآباء المؤسسين من جيفرسون، وفرانكلين، وماديسون الذين كانوا متعاطفين مع الربوبية، نظروا لمكانة الدين داخل الجمهورية انطلاقا من الربوبية ومبادئها.

دين القلب / الدين الطبيعي: على عكس الربوبية التي كان ينظر إليها كدين عقلاني بارد، مادام إلهها يتم التوصل إليه عبر حجة قبلية أو تجريبية، ويشار إليه كمحرك أول أو المهندس الأصلي، فغالبا ما يدرك باعتباره بعيدا وغير مهتم بوجود وصراعات الإنسان، وبالتالي لا يجيب عن الاحتياجات الإنسانية التي ظهر الدين من أجلها أول مرة. ومن هنا أسس بعض مفكري الأنوار ولا سيما أنطوني أشلي كوبر إيرل شافتسبري وروسو، الدين على العواطف الإنسانية بدل العقل. وهو دين يقوم على الاعتقاد الداخلي للإنسان بوجود الله وخيريته، وبروحانية النفس وخلودها، وبإلزامية فعل الخير.

الإلحاد Atheism: من بين الاستجابات المتنوعة للمنظومة الدينية التي أسفر عنها التنوير نجد الإلحاد. ورغم أن الإلحاد قديم، واتخذ أشكال مختلفة في الحضارات السابقة، إلا أن التقدم العلمي والحرية الدينية في عصر الأنوار أعطياه دفعة قوية. لقد كان الإلحاد أكثر حضورا في التنوير الفرنسي منه في الدول الأوروبية الأخرى. ومن خلاله تم النظر إلى الدين إما كعائق أمام التطور العلمي والاجتماعي، أو كعامل مساعد على الاستقرار الاجتماعي رغم أنه وهم. وفي هذا الإطار دعا فولتير إلى ضرورة تحمل الشعائر الدينية فقط لفائدتها في تحقيق الاستقرار الاجتماعي، وليس بسبب أن ما تقوله صحيح وحقيقي. أما Baron d'Holbach في كتابه "نظام الطبيعة – System of Nature" طالب باستبعاد الدين كلية من الحياة الفردية والاجتماعية، لكي يستطيع البشر أن يوائموا بين أنفسهم والطبيعية. أما المادي Julien Offray de la Mettrie وتحت تأثير التجريبية الإنجليزية، فقال في كتابه "الرجل الآلي" إنه لا يوجد شيء مثل الروح وإن كل المعرفة تأتي في النهاية من الانطباعات الحسية عن العالم الخارجي.

بالإضافة إلى أشكال التدين المذكورة أعلاه، فهناك أشكال أخرى متعددة نتجت من خلال الجدل مع الطائفتين المسيحيتين الرئيسيتين، الكاثوليكية والبروتستانتية. وفي هذا الإطار ظهرت الميثودية (Methodism)، والحسيدية (Hassidism)، والتقوية (Pietism)، وكل واحدة من هذه الطوائف كانت تستند على رؤية معينة للكتاب المقدس، وتركز على هدف تراه هو الأهم. دون أن ننسى التوجه الذي بدأ يتعامل مع الدين كإبداع إنساني، خضع مثله مثل الأشكال الثقافية الأخرى للتطور والتحسين. وهو التصور الذي قدمه دافيد هيوم في كتابه "التاريخ الطبيعي للدين = Natural History of Religion". وقد ساعد في هذا الأمر اكتشاف ديانات الشعوب الأخرى، ثم دراستها ومقارنتها بالديانة المسيحية.

I – 2 – 3 – التسامح الديني كمخرج

لا يمكن أن يكون إبداع كل أشكال التدين أعلاه، سوى مصاحبا لفكرة التسامح الديني، وإلا كانت لتقبر في مهدها. ورغم أن القرن الثامن عشر هو الذي شهد القرارات والمناظرات الجادة في موضوع التسامح، إلا أن ظهور الفكرة وبعض الأصوات المدافعة عنها ظهرت في القرن السابع عشر وبالخصوص في إنجلترا. فقد سئم الإنسان الأوروبي الصراعات العسكرية والسياسية من أجل فرض الاعتقاد الديني، وأصبح ينظر إلى الماضي باشمئزاز لما تخلله من دمار وفوضى بسبب الصراعات الدينية داخل كل دولة وبين الدول. وساد الاقتناع بأن الاعتقاد الديني شيء لا يجب أن يفرض على الإنسان، لكنه ينبع من حرية الضمير والعقل، ولهذا فإن محاولات فرض وحدة الدين بالقوة كان عملا أخرقا.

وفي أواخر القرن السابع عشر اشتد الجدال حول التسامح الديني، وكثرت الرسائل حوله، بين مؤيدين له باعتباره حالة صحية في المجتمع والدولة، ومحذرين منه باعتباره الخطوة الأولى في تفكيك الدولة وانحلالها. وفي هذا الإطار تأتي أفكار جون لوك في التسامح، وهي أفكار لم تأتي مرة واحدة، وإنما خضعت لتطورات وتعديلات مع الوقت. لكننا لن نناقش هنا سوى الأفكار التي تمثل المرحلة الأخيرة من تطور لوك في التسامح، وهي المعبر عنها في الرسالة الشهيرة "رسالة في التسامح" التي صدرت باللاتينية دون اسمه. فقد أوكل مهمة نشرها لصديقه في هولندا Limborch، لكن النسخة التي عرفت رواجا كبيرا هي النسخة المترجمة إلى الإنجليزية من قبل William Popple في نفس السنة وبدون مشاركة لوك نفسه. وقد استمر هذا الأخير يكتم أنه مؤلف "رسالة في التسامح" حتى قبيل وفاته بوقت قصير.

I – 2 – 4 – الأفكار الرئيسية للرسالة

تتمحور الأفكار الرئيسية للرسالة حول تبيان مهام كل من المؤسستين الدينية والمؤسسة السياسية، وكيف أن تداخل الأدوار بينهما يسيء إليهما معا. بالإضافة إلى

توضيح طريقة التعامل مع المختلفين دينيا، ومتى يكون هذا الاختلاف ضارا بالمجتمع ومتى يكون غير ذلك، ويمكن إيجاز هاته الأفكار كالتالي:

- ضرورة التمييز بين مهمة الحكومة المدنية ومهمة السلطة الدينية، واعتبار الحدود بينهما ثابتة لا تقبل أي تغيير.
- رعاية نجاة روح كل إنسان هي أمر موكول إليه وحده، ولا يمكن أن يعهد بها إلى أية سلطة مدنية أو دينية.
- لكل إنسان السلطة العليا المطلقة في الحكم لنفسه في أمور الدين.
- حرية الضمير حق طبيعي لكل إنسان.
- التجاء رجال الدين إلى السلطة المدنية في أمور الدين إنما يكشف عن أطماعهم في السيطرة الدنيوية. وهم بهذا يؤازرون من نوازع الطغيان عند الحاكم. والشاهد على مدى التاريخ أن تحالف الحاكم مع رجال الدين كان دائما لصالح طغيان الحاكم فهو الأقدر على التأثير فيهم، وليسوا هم قادرين على تقويمه ورده إلى السبيل القويم إن جنح إلى الظلم والاستبداد.
- لا ينبغي للحاكم أن يتسامح مع الآراء التي تتنافى مع المجتمع الإنساني أو مع تلك القواعد الأخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدني.
- يستثني لوك من التسامح تلك الفرق أو المذاهب الدينية التي تدين بالولاء لأمير أجنبي، ولما كان الكاثوليك في إنجلترا يدينون بالولاء للبابا ولملك فرنسا، فإن لوك يرفض التسامح معهم، لا لأسباب دينية، بل لأسباب سياسية.
- لا ينبغي للحاكم أن يتسامح مع الملحدين لأنه لا أمان لمن لا يؤمن بالله.
- يجب ألا تتهم المذاهب المخالفة للمذهب السائد في الدولة بأنها بؤر لتفريخ الفتن وألوان العصيان. إن هذه التهمة لن يكون لها أي مبرر إذا ما قام التسامح، فإن السبب في وجود دواعي الفتنة عند المخالفين هو ما يعانونه من اضطهاد من جانب المذهب السائد. فمتى زال الاضطهاد واستقر التسامح معهم، زالت أسباب النوازع إلى الفتنة والعصيان. فوجود نوازع الفتنة بينهم إنما مرجعه إلى ما يلاقونه من اضطهاد وعذاب.

- ومن أسباب التآمر والفتن استبداد الحاكم ومحاباته لأتباعه ولبني دينه. ولو أن الحاكم اتبع النزاهة والإنصاف مع الرعية لما تآمروا عليه. فإن زعم الحاكم أنه إنما يفعل ما يفعل لأن هذا هو ما يقتضيه "الصالح العام"، بينما قال المخالفون إن هذا ليس من الصالح العام. فمن ذا الذي يستطيع أن يفصل في الأمر بينهما؟ يجيب لوك بأن الله وحده هو الذي يستطيع أن يفصل في هذا الخلاف، لأنه لا يوجد على الأرض حكم بين الشعب وبين الحاكم. لهذا يرى لوك أن من حق الأفراد أن يستخدموا القوة في الدفاع عن أنفسهم ضد السلطة الظالمة.

I – 2 – 5 – محدودية أفكار لوك حول التسامح.

قبل الإشارة إلى محدودية أفكار لوك حول التسامح، تجب الإشارة أولا إلى أن كل فكر ولو كان فكرا فلسفيا مجردا، يبقى في الأخير وليد أوضاع سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ودينية، هي التي جعلته أمرا ممكنا. وبذلك كانت الأوضاع العامة في بريطانيا في النصف الأخير من القرن السابع عشر، حافلة بالصراعات الناتجة عن التداخل بين الدين والسياسة، الأمر الذي فرض على لوك تبني موقفا محددا، يواكب طبيعة هذه الصراعات ويرسم أفق الخروج منها. لكن إبداعه لرؤية تخرج بلاده من دوامة الحروب الدينية، تحمل أيضا في طياتها بذور الفكر الكوني، الذي يمكن أن يطبق في أي منطقة أخرى، ومن هنا كانت النواقص هامشية بالنسبة لرؤية فلسفية ستؤسس منذ تلك اللحظة لعلاقة صحية بين الدين والسياسية.

أما محدودية الرسالة فيمكن إجمالها في نقطتين:

الأولى وتتمثل في استثنائه من التسامح الطائفة الكاثوليكية، مبررا ذلك بتبعية هذه الطائفة لأمير خارجي، بمعنى أن الدافع هنا إلى عدم التسامح سياسي وليس ديني. رغم أن هذه التبعية السياسية للخارج، ربما يكون سببها الاضطهاد الذي يعتبره لوك نفسه الدافع إلى التمرد على الدولة وليس الأفكار ذاتها.

أما النقطة الثانية فهي مطالبته عدم التسامح مع الملحدين، لأنهم لا يؤمنون بأي إله، ومن ثم عدم الثقة فيهم. وربما هذه هي النقطة التي يؤخذ عليها لوك أكثر، لأنه ليس من

الضروري أن من ينكر وجود إله يتنكر أيضا "للوعود، والعقود، والقسم وحسن النية". وهي النقطة التي ستفتح نقاشا فلسفيا غنيا فيما بعد، يعالج علاقة الدين بالأخلاق.

توصيات عامة

طلبتي الأعزاء، إليكم الآتي:

- **لقد ارتأيت أن أكتفي بهذا القدر نظرا للظروف التي نمر بها، وبهذا لن يتم التطرق إلى آثار فلسفات الأنوار على الفكر المعاصر.**
- **وعليه ستمتحنون في المحاور التي قدمت هنا أي:**

1 – المدخل العام لفلسفة الأنوار، والذي يتطرق إلى التحولات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي مهدت لفلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر.

2 – محور المفاهيم والأفكار الأساسية لفلسفة الأنوار، والذي يتطرق إلى مفهوم الأنوار والمقاربة الكانطية له، وكيف اتخذ الدين مكانة متميزة في فلسفة القرن الثامن عشر، وكيف اعتبر التسامح الديني المخرج من الصراعات الدينية والطائفية.

متمنياتي لكم بالتوفيق، وبالصحة والعافية لكم ولأسركم الكريمة.